أدب الفقهاء

-٦-

موضوعاته وأغراضه :

تلك وجوه ومعالم من أدب الفقهاء روعي فيها الناحية التاريخية والجغرافية وتنوع الاختصاص في أصحاب هذا الأدب إذ كان وصف الفقهاء كما قلنا يطلق على مختلف طبقات أهل العلم وخصوصاً في هذا السياق من النقد الأدبي . ونحن نشعر أننا قد اختصرنا الكلام اختصاراً شديداً فيما يقتضيه العرض التاريخي والتقسيم الجغرافي ، لملامح هذا الأدب والتعريف برجاله ، ولكننا مع ذلك قد قاربنا ما يلتزمه مؤرخو الأدب العربي على العموم من الوقوف عند نهاية العصر العباسي في عملية التأريخ ، وإفراد الأدب المغربي والأندلسي بالذكر ، مراعاةً لأصحاب النظرية الإقليمية في الأدب الذين يقولون بتأثير العامل الجغرافي في الأعمال الأدبية ، أو نظراً فقط لبُعد الإقليم المغربي وتأخر وجود أدبه عن أدب المشرق . وعلى كل حال فاعتقادنا أننا قد أعطينا أمثلة حية من أدب فقهاء العصور الأدبية والأقاليم التي يُعنَى بها مؤرخو أدبنا العربي ، وهي من حيث الكمّ لا تقل عما يعطيه هؤلاء المؤرخون من أمثلة الأدب غير الفقهاء من كبار الشعراء ، ومن حيث الكيف على ما وصفنا في كل مثال عند عرضه .

فلْنُلقِ نظرة على موضوعات هذا الأدب التي سبق أن عَددْناها عدّاً إجمالياً في صدر هذا البحث ، لنقول كلمة في كل موضوع منها ، ولنعطي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مزيداً من الأمثلة على ما تقدم ذكره من بعضها ، غيرَ مصنّف ولا مَنْسوق في الباب الذي يخصّه ، كما أن كثيراً من الأسماء التي لم يرد ذكرها في القسم التاريخي المار ، إنما يمكن استيعابها في هذا القسم الموضوعي بطريقة تعداد الأمثلة واختيار الشاهد ، وهكذا نكون قد قدمنا أدب الفقهاء مرتين ، قدمناه لمن يُعنَى بالناحية التاريخية في تراجم أعلامه مرتّبة بحسب السنين ، ونُقدّمه لمن يُعنَى بالناحية الموضوعية في فصول وأبواب تنتظم الأغراض والفنون التي تناولها الفقهاء في شعرهم ، والتي تعطينا نماذج من أدبهم الغض وفي كل موضوع ، ليسهل أمر مقارنتها مع أدب غيرهم على من يريد ذلك ثم إننا في هذا التقديم الثاني قد نتجاوز الحد التاريخي الذي وقفنا عنده إلى ما بعده من أزمنة وأشخاص : فنذكر نماذج وأسماء من العصور المتأخرة حتى عهدِ ما قبل النهضة الحديثة ، ولربما تجاوزناه أيضاً رغبةً في ربط الحاضر بالماضي وإعطاء صورة كاملة في الموضوع الذي نعرض له ، والحديث شجون كما يقولون .

شعر العاطفة والوجدان :

ويدخل فيه الغزل والنسيب . وإنما لم نعبّر بهما لأنهما في شعر الفقهاء يتميزان غالباً بشيء من التحفظ الذي يقتضيه وَقارُ العلم ، وهو تحفظ كثيراً ما بعث أصحابنا الفقهاء على اصطناع الأساليب الرمزية والاهتمام بالصفات المعنوية ، فصار غزلهم بذلك قلما يشبه غزل الشعراء الذي تغلب عليه الأوصاف الحسية ويغرق في المادية حتى يكون أدعى إلى الفجور والاستهتار ، وبكل وجه فهناك آفاق واسعة من الشعر الوجداني نظم فيها الفقهاء ، ليس الغزل إلا جانباً واحداً من جوانبها العديدة ، فحَمْلُه على الشعر الوجداني أولى من حمل هذا على الغزل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونفتتح هذا الباب بقول ابن أبي مُليكة فيما هو من معنى قول شوقي (الحياة الحب والحب الحياة) :

من عاش في الدنيا بغير حبيب ... فحياته فيها حياةُ غريب
ما تنظر العينان أحسنَ منظراً ... من طالب إلفاً ومن مطلوب
ما كان في حور الجنان لآدمٍ ... لو لم تكن حواءُ ، من مَرْغوب
قد كان في الفردوس يشكو وحشةً ... فيها ، ولم يأنسْ بغير حبيب

نسب هذه الأبيات إلى ابن أبي مُليكة الراغبُ الأصبهاني في محاضراته ، وهي حرية أن تكون أم الباب في هذا المعنى نظراً لمكانة قائلها ، فانه من فقهاء التابعين ، وقضاة المسلمين – كان يلي قضاء الطائف لابن الزبير – ونظراً لما عبرت عنه من كون الحياة بغير حبيب غربة ، فالخَليُّ القلب من نوازع الحب كالغريب الذي لا يجد رفيقاً ولا صديقاً يأنس به ويشاطره أفراحه وأتراحه ، فيا لوحشته وقلق حياته ! وبذلك كان منظر الإلفين أو قل الحبيبين أحسنَ منظر تقع عليه العين ، فما السماء بقمرها ونجومها ، والأرض برياضها وحياضها ، والشروق بسحره وجماله ، والغروب بروعته وجلاله ، وكلُّ شيء مما كان حسناً جميلاً ، إلا انعكاسٌ لذلك المنظر الذي لا يحلو في العين شيء يدُونه ، ولا يبدو فيما يبدو به من حسن وجمال إلا لأن المحبين خلعوا عليه تلك الحُلّة ، وزانوه بذلك الحَلْي . وابنُ أبي مليكة يُفرّغ الجنة من جميع الرغائب ، وهي الجنة حافلةً بما تصبو إليه النفس ويميل إليه القلب – إذا لم تكن فيها حواءُ تبادل آدم حباً بحب ، وتقابل شعور الإنس والعطف منه بمثله ، حتى الحُورُ العينُ لا تدخل تلك المداخل ولا تملأ ذلك الفراغ ، وهو معنى بديع لم يُسبق اليه ، وفيه طمأنينة وسكينة لعقائلنا ورفيقاتنا من الجنس اللطيف اللائي يتبرّمْن كثيراً بهؤلاء الحُور العين ويستوحشْن من مُشاركتهن لهن في أزواجهن في الجنة ، فهذا شاعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ففيه يبين أنْ لا جمالَ الحور العين ، وهو جمال ضربَ جميع الأرقام القياسية في هذا الصدد ، ولا شيء مما في الجنة من المُغريات ، بقادر على أن يصرف الأحباب عن أحبابهم وبخاصّة الرجل عن شريكته في الحياة الأولى ، لأن ما بينهما أسمى وأعلى من كل ذلك ، إنه رباط روحي وامتزاج قلبي ، بدأ منذ كانا مُنجدِلَيْن في الطين ، وما زال ينمو ويقوى ويجذب هذا نحو هذه ، حتى اندمج كل منهما في الآخر وأصبحا ذاتاً واحدة تجرُّ وراءها من الذكريات بقدر ما اشتبكت به حياتُها الماضيةُ من العلاقات ، فكيف وأنّى للحور العين بهذا التجاوُب وما فيه من متاع ؟

إننا لهذه المعاني الجميلة التي تضمنتها هذه الأبيات ، ولتقدّمها زمناً باعتبار أن قائلها من أهل الصدر الأول ، قلنا إنها حرية أن تكون أم الباب في شعر الغزل والنسيب ، وما أشبهها بأبيات ابن الرومي السائرة في حب الوطن التي يقول فيها (ولي وطن آليتُ أن لا أبيعه) فكما بقيت هذه غُرّة الشعر العربي في معناها ، كذلك يحق لأبيات ابن أبي مُليكة أن تكون واسطة العقد في بابها ، ولا ننس مع ذلك أن صاحبها فقيه .

ولأبي بكر بن عبد الرحمن الزُّهْري ، وهو من رجال الرواية والحديث :

وَلمَّا نزلنا منزلاً طَلَّه النَّدى ... أنيقاً وبُستاناً من النَّوْر حاليا

أجَدّ لنا طيبُ الزمان وحسنُه ... مُنىً ، فتمنينا فكنتِ الأمانيا

هذان البيتان من أحسن ما قيل في تمني لقاء الحبيب عند ما تجلو الطبيعة محاسنها ، ويروق المكان ويطيب المجلس ، فلا يكمل سرور المحب بذلك ، ولا تقرُّ عينه بما يرى ، حتى يحضر حبيبه ويُضفيَ من روحه وجماله على تلك المجالي ، ما يجعلها تحُلُّ من نفسه محلّ الرضى والقبول ، وإلا فإن الجنة ونعيمها على ما مرّ آنفاً لا يحلو منها شيء بدون مشاركة الحبيب . ولذلك كان وجوده في مثل هذه الحال أقصى الأماني كما عبَّر عنه هذان البيتان أرق تعبير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا يفوتنا أن نقول إنها من شعر الحماسة ، ولا يختار أبو تمام لديوانه هذا إلا ما كان غاية في حسن أسلوبه ومعناه .

ومن الشعر العاطفي المجرّد قولُ أبي بكر الشّبلي من أكابر الصّوفية :

رُبَّ ورقاءَ هتوفٍ في الضحى ذاتِ شجوٍ صدحت في فَنَنِ
ذكرتْ إلْفاً وعيشاً سالفاً فبكت حُزْناً فهاجت حَزَني
فبكائي ربما أرّقها وبُكاها ربما أرّقني
ولقد تشكُو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهَمُني
غيرَ أني بالجوَى أعرفُها وهي أيضاً بالجوى تعرفني
أتُراها بالبُكى مولعةً أم سقاها البينُ ما جرّعني

وهي مقطعة تكاد تسيل رقة وعذوبة ، فما شئتَ من حسن التقسيم ورد العجز على الصدر ، ومن جمال الأداء لهذا التداعي بينه وبين الحمامة الشجية ، وتشابُه حاله وحالها في الشوق إلى الحبيب والبكاء لبعده ، إلى قوة التخيُّل الذي جعله يعتقد أنها تحس بحرقته وجواه ، كما يحس هو بجواها وحرقتها ، وإن لم يكن الأمر كذلك فلِمَ هذا البكاء المرّ ؟ هل هو وَلوعٌ فقط أم هو في الواقع شُعور بالبين وفُرقة الحبيب مثل شعوره هو بذلك الذي هاج حزنه وبكاه ؟ الحقيقة ان القطعة معبرة أحسن من هذا الذي قلناه في شرحها ، وأنها في غنى عن كل تفسير ، فهي بشكلها ومضمونها قد استولت على الغاية من جمال الصياغة وحسن البيان .

ومن لطيف الغزل قول القاضي عياض :

رأتْ قمرَ السماءِ فأذْكرَتْني لَياليَ وصلِها بالرَّقمتَيْنِ
كلانا ناظر قمراً ولكن رأيتُ بعيْنِها ورأتْ بعيني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لهذين البيتين شهرة كبيرة بين الأدباء، وهما وإن لم يعبرا عن عاطفة مشبوبة ولا عن شعور عميق، فقد تضمنا صنعة بيانية عجيبة مبنية على خيال بارع، جعلتها يمثّلان نوعاً فريداً من الرمزية في الأدب العربي، وذلك هو سبب الشهرة التي حظيا بها حتى ادعاها كثير من الأدباء. (فقوله كلانا ناظر قمرا) هو أعمُّ من أن يراد به قمر سماء ولذلك عقبه بما يفيد أن هناك قمرين، المحبوبة الشبيهة بالقمر، والقمر الحقيقي الذي هو قمر السماء، لكنه يرى أن المحبوبة هي القمر الحقيقي فلذلك كان ينظر إليها بعينها هي التي تنظر إلى قمر السماء، وهذا عنده هو القمر المجازي، فلذلك جعل المحبوبة تنظر إليه بعينه هو التي ينظر إليها. وذلك هو قوله في الأول (ولكن رأيت بعينها) وفي الثاني (ورأت بعيي) ولا شك أن تخيله هذا هو من إغراقه في هوى المحبوبة بحيث جعلها هي التي يحق أن يشبه بها القمر، ثمّ كان صَوْغُ هذا المعنى في بيتين اثنين من الشعر؛ منتهى البراعة والمقدرة.

ومن بليغ الشعر في الرقة والنحول قول محمد بن عبد الكريم الفِنْدلاوي الفاسي المعروف بابن الكَنّاني، أحد مشائخ محيي الدين بن عربي:

وما أبقى الهوى والشوقُ مني سوى نفَسٍ تردَّد في خيال
خفيتُ عن المنية أن تراني كأن الروح مني في مُحال

ولكي نتبينَ فضل هذين البيتين في معناهما، علينا أن نقارنها بقول المتنبي في ذلك:

كفى بجسمي نُحولاً أنني رجل لولا مُخاطَبتي إياك لم ترني

فانه أثبت لنفسه جسماً وكونه رجلاً يخاطب صاحبه، في حين أن صاحبنا لم يبق منه إلا نفَس متردد في خيال، ثم إن المتنبي جعل صاحبه يراه، وأما صاحبنا فقد خفي حتى عن الموت أن يراه وجعل روحه كأنها في محال، فبين الشعرين بَوْنٌ بعيد.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والشيخ محيي الدين من أعظم شعراء الوجد والغرام من الفقهاء والصوفية ، وله ديوان سماه ترجمان الأشواق فيه كل معنى بديع من شعر الغزل والنسيب والحب الإلهي ، ونقتصر من قوله على هذه الأمثلة المختارة بمعرفتنا :

مَرضي من مريضة الأجفان   علّلاني بذكرها علّلاني
هفتِ الوُرْقُ في الرّياض وناحتْ   شجوُ هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادى   من بنات الخُدورِ بين الغواني
طلعت في العيان شمساً فلما   أفلت أشرقتْ بأُفْق جَناني
يا طُلولاً بِرَامةٍ دارساتٍ   كم حوتْ من كواعبٍ وحِسانِ
بأبي ثُمَّ بي غـزال ربيب   يرتعي بين أضلعي في أمان
ما عليه من نارها ؛ فهو نُور   هكذا النُّورُ مُخمِدُ النِّيران

وله على طريقة مهيار :

واحرّبا من كبدي واحربا   واطرّبا من خلدي واطربا
في كبدي نارُ جوى محرقةٌ   في خلدي بدرُ دجا قد غربا
يا مَبْسِماً أحبَبْتُ منه الحبَبا   ويا رُضاباً ذقتُ منه الضَّرَبا
يا قمراً في شَفَق من خفَر   بخده ، لاح لنا مُنتقبا
لو انه يُسفِر عن بُرقعه   كان عذاباً ، فلهذا احتجبا

وله أيضاً ، والأبيات الثلاثة الأخيرة هي مما شرّق وغرّب من شعره :

ألا يا حمامات الأراكة والبان   ترفّقْن لا تُضعِفْن بالشجو أشجاني
ترفقن لا تُظهرن بالنّوح والبكا   خَفيَّ صباباتي ومكنون أحزاني
أطارحها عند الأصيل وبالضحى   برَنّةِ مُشتاق وأنّة هَيْمان
ومن عجب الأشياء ظبيٌ مبرقع   يشير بعُنّاب ويُومي بأجفان
ومرعاه ما بين الترائب والحشا   ويا عجب من روضة وسْطَ نيران
لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورة   فمرعى لغزلان ودَيْرٌ لرُهبان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبيت لأوثان وكعبـــةُ طائف وألواح توراة ومُصحَف قرآن
أُدينُ بدين الحب أنى توجَّهَتْ ركائبُه ، فالحبُّ ديني وإيماني

تعطينا هذه النماذج على اقتضابها فكرة عن شاعرية الشيخ الأكبر ، خاصة في موضوع المواجد والأشواق ، فهو شاعر واسع الأفق متفتح الذهن ، يزاوج بين النزعتين الحسية والمعنوية ، ويشير في خفاء إلى مرامه ولكنه لا يَرمز ولا يُغمض ، ومن ثم كانت أغراضه مفهومة حتى انه لَمُؤاخَذٌ بها عند من لا يقبلون هوادة في ميدان التشرُّع . ونحن نقبل كلامه على أنه من طموح الشمس الشاعرة وبَسْطتها وتحليقها في سماء المعرفة ونُشدانها للكمال . وقد قال ابراهيم عليه السلام (رب أرني كيف تحيي الموتى) وقال موسى صلوات الله عليه (رب أرني أنظر إليك) وقال سيدنا محمد (ﷺ) « نحن أحق بالشك من إبراهيم » فكيف بنا معشرَ المحجوبين عن حكمة الخلق وسرّ الوجود لا نتطلع ولا نستفهم ؟ نعم قد يزِلُّ الواحد منا فيسبق لسانه إلى ما فيه مؤاخذة عليه ، لأننا غير معصومين ، وهل كان الغفران إلا للزلل ؟

وما أرقَّ كلام صاحبنا في القطعة الأولى ، وألطفَ صفتَه لحبه بالمرض ، ولحبيبته بمريضة الأجفان متوخياً في ذلك هذا الجناسَ الخفيف الذي لا تكلف فيه ، ثمّ محاورتَه بعد ذلك لرفيقَيْه ، وصفته للحمام طائراً ونائحاً في الرياض ، مثيراً لشجنه مهيجاً لحزنه ، مما جعله يعود لذكر الحبيبة وتفديتها بأبيه على عادة العرب في إظهار شعورهم نحو من يحبون ، وما أن جدد وصفَها في رشاقة وتحبُّب بما تعود الشعراء أن يصفوا به الحبائب حتى غلبت عليه نزعتُه المعنوية فأتى في البيت الرابع بما يُفهَم منه أنه يريد الحقيقة العليا مُلمِحاً إلى رؤيا الخليل للشمس بازغةً ثم آفلةً ، ولكنه لم يكن متعرِّفاً بل واصفاً ، لأن شاهد الرسالة على المطلوب قائمٌ معه ، فلذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم يكن غروب الشمس عنده نهايةً وعلامةَ نقْص ، بل بداية للتجلي واستمراراً للاشراق الذي هو عينُ الكمال . ويرقَى الحالُ بصاحبنا فيَهيم بين أطلال الأحبة ويفنَى في ذات محبوبه فلا يشعر إلا وهو يُفدّيه بأبيه مرة ثانية ، ثم بنفسه ويجد حقيقة حبه بين جوانحه وأضلعه المتأججة بنار الشوق والغرام برداً وسلاماً كما كانت نار النمرود على ابراهيم . لا . بل انه ليَجِدُها نُوراً مخمداً للنيران ، مُوحياً السكينة والاطمئنان فيأنسُ ونأنسُ معه ، لأننا لا نملك ، وقد خاطبَنا أولاً بما هو من طبيعتنا وبغَزل حسّيّ رقيق إلا أن نصحبَه في رحلته التي انتهت بنا معه إلى هذا الجو من المعاني السامية ، فإذا نحن قد أحسسنا بما أحس أو ببعض ما أحس ، وأشرق باطننا بنور الإيمان واليقين .

ويطول الأمر لو تتبعنا أغراضه في القطعتين الثانية والثالثة ، وحللنا عناصر شاعريته فيها ، وإنما لا بد أن نشير إلى هذا المعنى الإشاري البارع الذي تضمنه البيتُ الخامس من القطعة الثانية ، وهو الذي يعلل احتجاب المحبوب بالشفقة على المحبين من بُهْر المُكافحة الذي لا تحتمِلُه بِنْيَتُهم الضعيفة وهو يرمز بذلك إلى قوله تعالى لِكَليمه موسى لما سأله الرؤية : (انك لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) وقد مهد له بالبيت الرابع الذي لا كِفاء له في الجمال ، فجاء متمكناً من موضعه ، منسجما مع ما قبله غاية الانسجام .

كذلك نشير إلى اللمحة الشعرية الرائعة التي اشتمل عليها البيت الخامس من القطعة الثالثة ، وقد عبر عنها بصورة أخرى في البيت السابع من القطعة الأولى وعلقنا عليها بما فيه الكفاية . أما الأبيات الثلاثة الأخيرة من القطعة الثالثة فانها أشهر من أن تُعرَّف ، وقد تُرجمَت إلى كل اللغات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحية من شرقية وغربية ، وهي تدل على روح إنسانية عالية تحتضن سائر العوالم بالحب الذي لا ينضب معينه ، ولا يُمنع من وِرْده أحد .

وغير خفي أن هذه الالتفاتات الروحية الجميلة التي يمتاز بها شعر القوم تجعل له قيمة يفوق بها شعر كبار الشعراء ، وترشّحه لأن يكون أدباً إنسانياً عالمياً ، وبالفعل فان ما نُقِل منه إلى اللغات الأجنبية أكثر مما نقل من شعر الشعراء الآخرين . ولو لم يكن له من ميزة إلا هذه لكان جديراً أن ينظر إليه بعين الإجلال والإكبار ، كيف وهو في الصنعة الشعرية أيضاً لا يقصر عن شعر فحول الشعراء كما رأينا ؟

ويُذكّرنا الشيخ محْيي الدين بسلطان العاشقين عمر بن الفارض ، ذلك الشاعر المُولَّه ، الذي تغنى بالحب الإلهي ما شاءَ له الولَهُ ، وتفنن في معانيه وتعمق أسراره حتى صار علَماً بين الشعراء بشعره الوجداني الرفيع ومقاصده العُليا التي يهيم بها أرباب القلوب ، وتجعلهم يحفلون بديوانه أشد الحفل ولا يعدلون به ديوان شاعر من شعراء العربية . ولاشتهار شعره وديوانه فانا نكتفي بنموذج واحد منه وهو أبيات مختارة من قصيدته الجيمية الرقيقة ، قال :

ما بَيْنَ مُعتَرَكِ الأحداق والمُهَجِ ... أنا القتيلُ بلا إثمٍ ولا حرجِ

ودَّعتُ قبلَ الهوَى رُوحي لما نظرتْ ... عيناي من حُسن ذاك المنظر البَهِجِ

لله أجفانُ عين فيك ساهرة ... شوقاً إليك وقلبٌ بالغرام شَجِ

لا كان وجدٌ به الآماقُ جامدةٌ ... ولا غرامٌ به الأشواق لم تَهِجِ

عَذِّبْ بما شئتَ غيرَ البُعد عنك تجِدْ ... أوفَى مُحب بما يُرضيك مُبتَهِجِ

وخُذْ بَقيةَ ما أبقيتَ من رَمَقٍ ... لا خيرَ في الحُب إن أبقى على المُهَجِ

★ ★ ★

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مَن لي بإتلاف رُوحي في هوى رشأ ... حُلوِ الشمائل بالأنفاس مُمتزج
مَن مات فيه غراماً عاشَ مُرتقياً ... ما بين أهل الهوى في أرفع الدَّرَج
تراهُ إن غاب عني كلُّ جارحة ... في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العُود والنّاي الرخيم إذا ... تألّفا بين ألحانٍ من الهَزَج
وفي مسارح غِزْلان الخمائل ؛ في ... بَرْد الأصايل والأصْباح في البَلَج
وفي مساقط أنداء الغَمام على ... بساط نَوْر من الأزهار مُنتَسِج
وفي مساحب أذْيال النسيم إذا ... أهدى إليَّ سُحَيْراً أطيبَ الأرج
وفي التثامي ثغرَ الكأس مُرتشِفاً ... ريقَ المُدامة في مستنزَهٍ فَرِج

إن هذه الأبيات وحدها كافية لإظهارنا على شاعرية ابن الفارض ورقة معانيه ولطف تعبيره والأجواء الروحية التي يحلّق فيها ، فلم يكن القوم مُحابين له لما بَوَّأوه مكانَ الصدارة بين الناطقين بلسانهم المعبرين عن حالتهم . وانه فوق ذلك لخليقٌ أن يحتل مقاماً رفيعاً بين الشعراء الوجدانيين في الأدب العالمي ، لو أُتيح لشعره ترجمة وافية بأغراضه إلى اللغات الحية المقروءة في جميع أنحاء المعمور .

وهذا لون آخر من شعر القوم ، وهو قصيدة للشيخ عبد الله بن القاسم الشهرزوري المنعوت بالمرتضى ، يصف فيها رحلة له في عالم الغَيْب طلباً للحقيقة الربّانية أولها :

لمعَتْ نارُهم وقد عسعس الليـــلُ وملَّ الحادي وحارَ الدليل
فتأملتُها وفكري من البيـــن عليلٌ ولحظُ عيني كليل
وفُؤادي ذاكَ الفؤادُ المُعنّى ... وغرامي ذاك الغرامُ الدخيل
ثُمَّ قابلتُها وقلت لصحـــبي ... هذه النارُ نارُ ليلي فَميلُوا
فرموا نحوَهــا لحاظاً صحيحا ... تٍ فعادت خواسئاً وهي حُول

والقصيدة طويلة أثبتها ابن خلكان بكاملها في وفيات الأعيان وأثنى عليها ، وكذلك أوردها العاملي في الكشكول ، ومن المهم الوقوف عليها فانها من عيون الشعر الرَّمزي في العربية .

وفي الباب شعر كثير لأبي مَدْين والجيلي والشُّشتري والبَكري والنابُلسي والبُرَعي وابنُ وفاء وحُسين بن عبد الشَّكور والحَرّاق وسواهم ، مما يطول المقام بتتبعه ، ولكن لا بد أن نقدم ولو مثالاً واحداً للحراق باعتبار أنه مغربي ، قلما يُعرَف شعره في المشرق مع أنه صاحب ذوق سليم وصنعة محكمة . وليكن ذلك المثال هو الرائية التي ضمَّنها قول المجنون :

أماطتْ عن محاسنِها الخمارا ... ففادرتِ العقولَ بها حُيارى
وبثَّتْ في صميم القلب شوقاً ... توقَّدَ منه كلُّ الجسم نارا
وألقت فيه سرًّا ثم قالت ... أرى الإفشاءَ منك اليوم عارا
وهل يستطيع كتْمَ السر صبٌّ ... إذا ذُكِر الحبيبُ لديْه طارا
به لعِبَ الهوى شيئاً فشيئاً ... فلم يشعُر وقد خلَعَ العذارا
إلى أن صارَ غيْباً في هواها ... يُشير لغيرها ولها أشارا
يُغالِط في هواها الناس طراً ... ويُلقي في عيونهم الغُبارا
ويسأل عن معارفها التذاذاً ... فيحسبه الورى أن قد تمارا
ولو فهموا دقائق حب ليلى ... كفاهم في صبابته اختبارا
إذا يَبْدُو امرؤٌ من حيِّ ليلى ... يذِلُّ له وينكسرُ انكسارا
ولولاها لما أضحى ذليلاً ... (يقبّلُ ذا الجدارا وذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغَفْن قلبي ... ولكن حبُّ من سكن الديارا)

ولعلنا أسرفنا في إيراد الأمثلة من هذا النوع من الشعر الإشاري أو الرَّمْزي أو الصُّوفي بعبارة أوضح ، وقد بقيت في النفس حاجة من شعر الغزل والنسيب الخالص وضاق المجال عن الزيادة فلْنُلْمِع ببعض الأمثلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القليلة لئلا يظن أن أصحابنا الفقهاء إنما برعوا في هذا الشعر الصوفي وليس لهم في غيره من شعر العاطفة والوجدان كبير أثر ، مع أن ما قدمناه في تراجم أفراد منهم كعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود وأحمد بن المعذل وابن حزم ، كاف لإقامة البرهان على طول باعهم ورحب ذراعهم في هذا الباب على اتساعه . ولكن لا بد من أمثلة أخرى تتمم ما سبق وتذكر في مظنتها هنا ويكون بها مسك الختام للباب .

فمن ذلك قول القاضي أبي حفص بن عمر :

هم لحظوا لواحظها فهاموا | وتشرب عقل شاربها المدام
يخاف الناس مقلتها سواها | أيذعر قلب حامله الحسام
سما طرفي إليها وهو باك | وتحت الشمس ينسكب الغمام
وأذكر قدها فأنوح شوقاً | على الأغصان تنتدب الحمام
وأعقب بينها في الصدر غماً | إذا غربت ذكاء أتى الظلام

وله أيضاً :

مشت كالغصن يثنيه النسيم | ويعدوه النسيم فيستقيم
لها ردف تعلق في لطيف | وذاك الردف لي ولها ظلوم
يعذبني إذا فكرت فيه | ويتعبها إذا رامت تقوم
وما حبي لها إلا عذاب | عليه من نضارتها نعيم

وكان هذا القاضي بارعاً في النظم والنثر ، وله في الغزل مقطعات رائعة ، ويقول ابن سعيد المغربي فيه انه « كان على غاية من الظرف إذا أقبل شمت رائحة الطيب منه على بعد ، وإذا غسلت ثيابه لا يكاد يفارقها ، وكان منزله كأنه جنة ، حتى وجد فيه أعداؤه مطعناً ورفعوا للمنصور (الموحدي) أنه غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته وانهاكه في العشق » فنقله المنصور من قضاء فاس إلى قضاء إشبيلية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وللوزير العالم عبد المهيمن الحضرمي السبتي هذه الأبيات الرقيقة في الحنين إلى عهد وصال الأحبة :

نفسي الفداء لعهدٍ كنت آلفُه ... وطيبِ عيش تقضّى كلُّه كرَم
وجيرةٍ كان لي أنسٌ بوصلهمُ ... والأنسُ أفضلُ ما في الوصل يُغتنَم
كانوا نسيمَ فؤادي والحياةَ له ... فالآن كلُّ وجود بعدهم عدَم
بانُوا فعاد نهاري كلُّه ظُلَماً ... وكانَ قربُهم تُمحَى به الظُّلَم
فالعينُ مني لا ترقا مدامعُها ... كأنها سُحُبٌ تهمي وتنسجم
تبكي عهودَ وصال منهمُ سلفت ... كأنما هنَّ في إنسانها حُلُم
لئن ضحكتُ سروراً بالوصال لقد ... بكيتُ حزناً عليهم والدموعُ دَم
همْ علموني البكا ما كنتُ أعرفه ... يا ليتهم علّمُوني كيف أبتسم
واسترضعُوني لبانَ الوصل من صِغَري ... حتى إذا علِقَتْ روحي بهمْ فَطَموا

ولابن جابر المكناسي في المعنى :

تالله بعد أحبّائي الذين مضَوْا ... وخلّفُوني رهينَ البثِّ والحزَن
ما أبصرتْ مقلتي من بعدِهم حسَناً ... ولا نظرتُ إلى شيءٍ فأعجبني

ولأبي عليّ اليُوسي ، وفيه تورية مليحة :

وعاذلٍ عن الهوى عاذلٍ ... يدعو لأمْرٍ في الهوى إمْر
قال اسلُهم واصبِرْ فكم ذائق ... أمرَّ في الهجر من الصَّبْر
وزَعْ عِنانَ القلب عما جرى ... عليه من بَلْواء أوْ يجْري
فأيُّ عُذر في اتّباع الصبا ... قلتُ له إن الهوى عُذري

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net